أصالة منهجية البحث العلمي الاجتماعي عند ابن خلدون

د. ماجد ملحم أبو حمدان*

الملخص

تعالج هذه الدراسة مسألة حيوية بالنسبة للعلوم الاجتماعية بشكل عام، ولعلم الاجتماع بشكل خاص، تتمثل في أصالة منهجية البحث العلمي الاجتماعي عند ابن خلدون. فتركز على مناقشة الأسس والقواعد المنهجية، والآراء العلمية التي قدمها ابن خلدون وطالبَ الباحثين الالتزام بها أثناء إنجاز بحوثهم العلمية، كما تعرض آراء عدد من الباحثين الذين أتوا بعد ابن خلدون حول بعض المسائل التي عالجها، ويستخدم الباحث في معالجته للموضوع المنهج الوصفي التحليلي بغية تعرف أوجه الاتفاق والاختلاف بينهم، وذلك انطلاقاً من إيمان الباحث أن تغير الظروف المحيطة بالظاهرة قيد الدراسة من فترة زمنية لأخرى ومن مجتمع لآخر، تتطلب من الباحثين ليس الاستفادة مما توصل إليه السابقون فحسب، بل تطويره والإضافة إليه بما يتماشى مع متطلبات الواقع الراهن. فمن الموضوعات التي تناولها الباحث: لمحة عن منهجية البحث عند ابن خلدون، وفهمه للظاهرة الاجتماعية، ووجهة نظره حول علاقة الإنسان بالطبيعة، والموضوعية عنده، ورأيه بالتطور الاجتماعي، وآراؤه التربوية، وفي الخاتمة أشار الباحث إلى بعض الجوانب التي تكمن فيها أصالة منهجية البحث عند ابن خلدون.

* أستاذ مساعد في قسم علم الاجتماع – كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة دمشق.

The originality of Ibn Khaldoun social scientific research methodology

Dr. Majed melhm Abou Hamdan*

Abstract

This study approaches avital problem regarding social sciences in general, and sociology in particular, signified in the origin of the scientific social research methodology at IbnKhaldoun. It focuses on the discussion of the methodological basis and rules, and the scientific thoughts presented by

IbnKhaldoun and demanded the researchers to comply with in achieving their scientific researches. In addition, it depicts the view points of some other researchers who came after Ibn Khaldoun about some of the issues he approached . The Researcher , in his approach, uses the descriptive analytical method to acquaint himself with the coherence and contrast between them, starting from the researcher's belief in the fact that the change in the handled phenomena's surrounding circumstances from aphase to phase and from a society to another, demands researchers not only to make benefit from ex- researchers, but promote it and furnish it with what comes in coherence with the requirements of status quo**. Subjects approached by the researcher :**

Ahint on Research Methodology at Ibn Khaldoun, and his comprehension of social phenomena, and his view point about the relation between man and nature, his objectivity, his opinion in social development, and his educational thoughts. In conclusion, the research pointed out some sides where in the originality of research methodology at Ibn Khaldoun exists .

* Associate professor- Department of Sociology - Faculty of Human sciences and arts - Damascus University- Syria.

يعدُّ العلامة العربي ابن خلدون عبقريةً فذَّة متميزةً، فهو عالم موسوعيٌّ متعدّدُ المعارف العلمية والمواهب والقدرات، فإسهاماته العلمية متعددة ومتنوعة، فهو المؤسس لعلم العمران البشري، وعالم مجدد في علم التاريخ، وبارع في مجال الدراسات التربوية، وعلم النفس التربوي والتعليمي. وابن خلدون هو" (عبد الرحمن بن محمد) ولد بتونس في 1 رمضان 732 هـ/ 27 أيار (مايو) 1332 وتوفي في القاهرة في 25 رمضان 808 هـ/ 19 آذار (مارس) 1406.

ترجع أصوله إلى أسرة عريقة في العلم والسياسة هاجرت من إشبيلية بالأندلس إلى تونس في منتصف القرن السابع هجري (القرن 13). تلقى العلم على يد والده وكبار علماء عصره في تونس" (منظمة اليونيسكو، 2006، 3،http://www.alkottob.com). ففي مقدمته الشهيرة وضع ابن خلدون أسس فلسفة الحضارة وعلم التاريخ وعلم العمران (انظر: Sturm,1983,77). لقد ركز ابن خلدون في مؤلفاته على ضرورة اتباع الباحثين خلال دراساتهم لظواهر العمران البشري للقواعد والإجراءات المنهجية؛ بغية تحقيق الموضوعية في البحث، والتوصل إلى الحقائق العلمية عن واقع حياة البشر.

أولاً: تحديد مشكلة البحث:

تسعى هذه الدراسة إلى معالجة مسألة منهجية حيوية بالنسبة للعلوم الاجتماعية بشكل عام، ولعلم الاجتماع بشكل خاص، حيث ستتناول بالدراسة والتحليل منهجية البحث عند العلامة العربي ابن خلدون؛ بغية الوقوف على الأسس المنهجية التي اكتشفها وطورها واستخدمها في دراساته الاجتماعية، ومن ثمَّ العمل على الاستفادة منها ومحاولة تطويرها بما ينسجم مع المتطلبات الراهنة للدراسات الاجتماعية المعاصرة، ومن ثمَّ العمل على تسخيرها لخدمة البحث الاجتماعي. مع الأخذ بعين الاعتبار الاستخدام الواسع للتطور التكنولوجي والتقني في إنجاز الدراسات الاجتماعية المعاصرة. كما ستحاول هذه الدراسة استخلاص بعض الأفكار والآراء التي طرحها ابن خلدون في مقدمته، والتي ترتبط بعدة علوم اجتماعية معاصرة، كعلم الاجتماع، والتاريخ، وعلم النفس التربوي والتعليمي، ومحاولة عرض بعض الآراء حول الموضوعات ذاتها لبعض العلماء والباحثين في ميدان العلوم الاجتماعية الذين جاؤوا بعده؛ بغية تعرف مدى التقارب أو التباين بينه وبينهم.

من الجدير بالذكر هنا أن استعراض ما توصل إليه ابن خلدون من أسس نظرية وقواعد منهجية علمية، ثم استعراض آراء من أتَوا بعده من الرواد الأوائل في علم الاجتماع، وتبيان كيفية إدراكهم واستخدامهم لهذه الأسس النظرية والقواعد المنهجية لا

يقصد به استنتاج أسبقية ابن خلدون في طرح هذه القضايا، لأن ذلك – من وجهة نظري – لا يضيف إلى المعرفة العلمية أي شيء، وذلك انطلاقاً+ من أن المشكلات البحثية العلمية التي عالجها ابن خلدون والمسائل المنهجية التي استخدمها في دراسته لها لم تنته فائدتها بعد، فالمشكلات التي عالجها في عصره مازالت المجتمعات تعاني منها حتى الآن، وإن كانت بدرجات تتفاوت بين مجتمع وآخر وفقاً لظروف كل مجتمع ودرجة تطوره مقارنة بالمجتمعات الأخرى؛ الأمر الذي يرتب على الباحثين الاجتماعيين الاستفادة من إسهامات ابن خلدون والعمل على تطويرها بما يتماشى مع متطلبات العصر الراهن، والخصوصية التي يتمتع بها كل مجتمع، والاستفادة من التطور العلمي الذي نشهده هذه الأيام في كل المجالات العلمية في جمع البيانات والمعلومات وتخزينها واسترجاعها، للاستفادة منها في فهم الظواهر الاجتماعية التي ندرسها، وتحليلها، وتفسيرها، ومعالجتها، ويمكن للباحث الاجتماعي الاستعانة بمنهجية ابن خلدون في تطوير طرق وأدوات وتصميم تقنيات بحثية تتيح المجال أمامه للوصول إلى المعرفة التي تمكنه من فهم الواقع الاجتماعي الراهن.

ثانياً: أهمية البحث:

تكمن أهمية هذا البحث كونه يمثل إسهاماً متواضعاً في تسليط الضوء على منهجية البحث عند" ابن خلدون" في دراسته للظواهر الاجتماعية، وذلك من خلال محاولة الباحث الإضاءة على الأسس والإجراءات المنهجية التي استخدمها ابن خلدون في دراساته، والتي دعا الباحثين إلى استخدامها في دراسة ظواهر العمران البشري، كما تنبع أهمية هذه الدراسة أيضاً من تتبع الآلية المنهجية التي اتبعها ابن خلدون، وحثَّ الباحثين على اتباعها وتطويرها أثناء إنجازهم للبحوث الاجتماعية. وفي كون قواعد المنهج التي عالج بها ابن خلدون مشكلات المعرفة في عصره ما زالتتعالج مشكلات المعرفة الاجتماعية كما هي الآن في علم الاجتماع المعاصر.

كما يأمل الباحث من هذه الدراسة أن تكون محاولة جادة للوصول إلى أي معلومة جديدة تُضاف إلى العلم.

ثالثاً: أهداف البحث:

يهدف الباحث من إنجاز هذا البحث إلى الكشف عن الآراء والأسس المنهجية لابن خلدون التي اتبعها في دراسته لظواهر العمران البشري، وعرض آرائه المنهجية وتحليلهاحول الظواهر الاجتماعية التي عالجها في مقدمته، والعمل على تطويرها وتكييفها مع متطلبات الواقع الراهن للبحث الاجتماعي، ومن ثمَّ استخلاص النتائج التي

قد تسهم في زيادة مهاراتنا وقدراتنا العلمية في التطبيق الأمثل للإجراءات المنهجية الضرورية لإنجاز البحث العلمي الاجتماعي المعاصر بنجاح، وتعرف أوجه التشابه بين آرائه وكذلك التباين، وآراء بعض رواد علم الاجتماع الذين أتَوا بعده.

رابعاً: المصطلحات العلمية المستخدمة في البحث والمفاهيم:

أ– منهجيــة البحــث: يقصد بمنهجية البحث المناهج والطرائق والأدوات البحثية، والإجراءات المنهجية الخاصة بكل منها، التي يتبعها الباحث في بحثه منذ اختيار مشكلة البحث وحتى الانتهاء منه. وهي بالنسبة لهذه الدراسة تعني المناهج والطرائق والأدوات المنهجية التي استخدمها ابن خلدون في دراساته الاجتماعية، وبما أن منهجية البحث تتضمن المنهج، يمكننا القول: إن المنهجية تشير أيضاً إلى المبادئ والقواعد العقلية المسيرة للبحث.

ب – المنهج Methodology: يُعرَّف المنهج العلمي أنّه" جملة المبادئ والقواعد والإرشادات التي يجب على الباحث اتباعها مِنْ ألفِ بحثه إلى يائه بغية الكشف عن العلاقات العامة والجوهرية والضرورية التي تخضع لها الظواهر موضوع الدراسة" (بريك، 2002 – 2003، 17).

ويمكننا تعريف المنهج أنه مجموعة من الإجراءات المنهجية ترتكز على جملة من المبادئ والقواعد والإرشادات يتبعها الباحث في دراسته للظواهر بغية الكشف عن القوانين التي تخضع لها.

ج – المنهج الاستنتاجي: يقصد بالمنهج الاستنتاجي " مجموعة القواعد والأدوات المنهجية التي يتم بوساطتها استنباط النتائج من المقدمات" (انظر: Klaus/Buhr,1976, 248).

د– المنهج الاستقرائي: المنهج الاستقرائي هو" مجموعة القواعد والأدوات المنهجية التي يتم بوساطتها الانتقال من القضايا الجزئية إلى القضايا العامة" (بريك، 2002 – 2003، 33). ويمكن تعريف المنهج الاستقرائي أنّه يتمثل في مجموعة من الإجراءات المنهجية تستند على أسس وأدوات تمكّن الباحث من الانتقال من القضايا الجزئية إلى القضايا العامة والمنهج الاستقرائي يقوم بشكل أساسي على الملاحظة والتجريب.

هـ – الطريقةMethod: الطريقة هي " جملة من المبادئ والقواعد والإرشادات التي تساعد الباحث في الوصول إلى هدفه العلمي المنشود" (بريك، 2002 – 2003، 23). ومن الطرائق المنهجية التي استخدمها ابن خلدون في دراساته: الطريقة التاريخية، وطريقة المقارنة.

و– الطريقة التاريخية: ترتكز هذه الطريقة على دراسة الماضي، حيث تُستخدم لدراسة الظواهر التاريخية، فتهتم بنشأتها وتتبع مراحل تطورها حتى الحاضر، بغية الكشف عن العوامل والقوى التي أثرت في الحاضر وجعلته على ما هو عليه؛ وهذا يساعد الباحث في فهم حاضرها والتنبؤ بمستقبلها.

ز – طريقة المقارنة: وتتمثل في جملة من الإجراءات المنهجية (كتحديد معايير ثابتة للموازنة، والالتزام بالموضوعية) يتبعها الباحث في بحثه، حيث يتمكن من خلالها إجراء مقارنة بين ظاهرتين أو أكثر بغية التوصل إلى أوجه التشابه والاختلاف بينها.

ح – الملاحظة: وتعرَّف الملاحظة العلمية بأنها" عملية معقدة تستند على فرضية نظرية علمية، وتتطلب من الباحث تخطيطاً واعياً، وتقوم على أساس اختيار الباحث المقصود لبعض الجوانب المهمة للظاهرة قيد الدراسة بغية ملاحظتها في موقف معين ووقت محدد بإمعان ودقة للوصول إلى نتائج علمية" (أبو حمدان، 2013 – 2014، 182).

ط – التربية: تعرَّف التربية Educationبأنها" تنمية الوظائف الجسمية والعقلية والخلقية حتى تبلغ كمالها عن طريق التدريب والتثقيف" (عاقل،1983، ص27). ويقصد بها عند علماء التربية نمو الكائن البشري من خلال الخبرة المكتسبة من مواقف الحياة المتنوعة، ويقصد بالنمو اكتساب خبرات جديدة متصلة ومرتبطة ارتباطاً معيناً لتكوّن نمطاً خاصاً بشخصية الفرد وتوجهه إلى المزيد من النمو ليتحقق بذلك أفضل توافق بين الفرد وبيئته" (النجيحي، 1967، ص 117).

ي– الفكر التربوي: هو" ما أبدعته عقول الفلاسفة والمربين عبر التاريخ فيما يخص مجال التعليم الإنساني، وتنمية الشخصية وشحذ قدرتها ويتضمن النظريات والمفاهيم والقيم والآراء التي وجهت عملية تربية الإنسان" (زيادة، 2002، ص 24).

ك – العمران: لقد أشار ابن خلدون في مقدمته إلى أن العمران" هو التساكن والتنازل في مِصْرٍ أو حلَّةٍ للأنس بالعشير واقتضاء الحاجات لما في طباعهم من التعاون على المعاش" (ابن خلدون، 1984، 41). ويستوعب مصطلح العمران البشري عند ابن خلدون"(المجتمع والحضارة، فإرجاع الأخبار إلى" طبائع العمران" يتطلب المعرفة المفصلة بـ " أصول العادة" أي المتعارف في شؤون الإنسان والمجتمع والبيئة، و" قواعد السياسة" وما يمكن أن ينسجم معها وما لا يمكن، و" الأحوال في المجتمع الإنساني" بشكل عام" (عبد الحميد، 2008، 70).

خامساً: منهج البحث وطريقته:

تصنف هذه الدراسة ضمن إطار الدراسات النظرية (المكتبية)، حيث ترتكز على الأدبيات المتاحة أمام الباحثين في مجال تخصصهم، والتي ترتبط بمشكلة الدراسة، سواء أكان ذلك، بشكل مباشر أم غير مباشر. يُستخدم في هذا البحث المنهج الوصفي التحليلي، فهو يتناسب مع موضوع البحث، حيث يمكّن الباحث من جمع أكبر قدر من المعلومات من المصادر والمراجع المتاحة حول موضوع البحث، تساعده في توصيف الظاهرة قيد الدراسة بدقة ووضوح، كما يتيح له تحليلها إلى مكوناتها الأساسية، بغية الكشف عن العلاقات الأساسية التي تربط بين متغيراتها للوصول إلى تفسير علمي لها. أما بالنسبة للطريقة فقد استخدم الباحث الطريقة التاريخية التي مكَّنته من العودة إلى المصادر والمراجع التي استقى منها المعلومات اللازمة لإنجاز البحث، كما استخدم الطريقة المقارنة التي مكَّنته من عرض أفكار ابن خلدون وآرائهوعدد من الباحثين، ثم المقارنة بينها للتوصل إلى نقاط التشابه والاختلاف بينها.

سادساً: مجتمع البحث وعينته:

يقصد بمجتمع البحث كل ما كتبه ابن خلدون من أعمال عرض فيها آراءه وأفكاره النظرية والمنهجية، وخصوصاً، المقدمة التي شكلت المصدر الأساس لتعرف إنجازاته المتنوعة في مجالات عدة. بالإضافة إلى ذلك يتضمن مجتمع البحث كل ما كُتب من قبل الباحثين الآخرين حول موضوع البحث. أما عينة البحث فهي مجموعة المصادر والمراجع التي تمكَّن الباحث من الحصول عليها من بين مصادر ومراجع مجتمع البحث التي استفاد منها في إنجاز بحثه، وهي موثقة في قائمة مصادر البحث ومراجعه.

سابعاً: لمحة عن منهجية البحث عند ابن خلدون:

يهتم الباحث في هذا الجزء من البحث بمعالجة قواعد المنهج عند ابن خلدون بوصفها تمثل مشكلات بحثية تتعلق بكيفية الوصول إلى المعرفة الاجتماعية عن الواقع المعاش. وهي ذات طابع استمراري، فعلى الرغم من الجهود المبذولة من الفلاسفة والعلماء منذ الفترة التي أعقبت عصر ابن خلدون وحتى الآن، بخصوص هذه المشكلات، إلا أنها مازالت قائمة، فالباحث الاجتماعي مازال معنياً بضرورة ممارسة الشك والتمحيص في المعلومات التي يحصل عليها، وما زال بحاجة إلى استخدام عمليات الاستقراء والاستنتاج والتعميم والمقارنة وغيرها من قواعد البحث الاجتماعي التي أشار إليها ابن خلدون للوصول إلى المعرفة الموضوعية الموثوقة حول الظواهر الاجتماعية قيد الدراسة.

لقد وضع ابن خلدون في دراسته للظواهر الاجتماعية في علمه الجديد الذي توصل إليه – علم العمران البشري – الأسس المنهجية التي يستند إليها هذا العلم. وتكمن أهمية هذه الأسس في أنها تمكّن الباحثين من التخلص من الأخطاء التي وقع بها الباحثون الآخرون عندما اقتصروا في تدوين الأخبار على مجرد النقل عن الآخرين، دون أن يكلفوا أنفسهم عناء النظر في أصول العادة، أو إمكانية التشيع للآراء والمذاهب، وعدم التسليم بصحتها قبل تمحيصها والتأكد من أنها صحيحة" لأن الأخبار إذا اعتُمِدَ فيها على مجرد النقل ولم تُحَكَمْ أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال في الاجتماع الإنساني ولا قيس الغائب منها بالشاهد والحاضر بالذاهب فربما لم يُؤمنْ فيها من العثار وزلَّةِ القدم والحيد عن جادة الصدق" (ابن خلدون، 1984، 9).

ويشير ابن خلدون إلى أسباب وجود الأخطاء في أعمال ومؤلفات المؤرخين السابقين، إذ يقول في مقدمته:" ولما كان الكذب متطرفاً إلى الخبر بطبيعته، وله أسبابٌ تقتضيه، فمنها التشيعات للآراء والمذاهب، فإن النفس إذا كانت على حال الاعتدال في قبول الخبر أعطته حقه من التمحيص والنظر حتى تتبين صدقَه من كذبه. وإذا خامرها تشيُّع لرأي أو نحلة قبلت ما يوافقها من الأخبار لأول وهلة. وكان ذلك الميل والتشيُّع غطاء على عين بصيرتها عن الانتقاد والتمحيص فتقع في قبول الكذب ونقله " (ابن خلدون، 1984، ص35). كما يؤكد ابن خلدون جملة من الأسباب الأخرى المؤدية إلى الكذب في نقل الأخبار" ومنها تقرُّبُ الناس في الأكثر لأصحاب التَّجِلَّة والمراتب بالثناء والمدح وتحسين الأحوال ... ومن الأسباب المقتضية له أيضاً وهي سابقة على جميع ما تقدم الجهل بطبائع الأحوال في العمران ... فإذا كان السامع عارفاً بطبائع الحوادث والأحوال في الوجود ومقتضياتها أعانه ذلك في تمحيص الخبر على تمييز الصدق من الكذب" (ابن خلدون، 1984، 35 – 36).

ويرى ابن خلدون أن من الأسباب التي تؤدي إلى وقوع الباحثين والمؤرخين في أخطاء علمية، الأمور الذاتية التي تبعدهم عن الموضوعية التي تتطلب منهم العمل الجاد لتحقيق استقلال البحث ونتائجه عن مقاصد الباحث ورغباته الشخصية، وكذلك جهْل المؤرخين والباحثين بالقوانين التي تخضع لها الظواهر الطبيعية والاجتماعية.

لقد سعى ابن خلدون في أعماله إلى نقل المعلومات المؤتمنة حيث" يذكر لهذا المفكر الفذ سعيه للتمييز بين الأخبار التاريخية المؤتمنة والأخبار التاريخية التي لا يصح لمؤرخ أن يثق بها، ووضعه منهجية هذا التمييز" (الجوهري، يوسف، 2008، 7).

بالإضافة إلى اكتشاف "ابن خلدون" علم العمران البشري وتحديده موضوع دراسته، فقد سعى أيضاً – وعلى امتداد صفحات مقدمته وفي استعراضه لتاريخ العرب والبربر– إلى وضع مناهج هذا العلم وقواعده، التي اعتمدت على:

1– الشك والتمحيص:

إن الوصول إلى المعلومة الموضوعية الموثوقة شكلتْ مطلباً ضرورياً لدى الفلاسفة والعلماء القدماء والمعاصرين على حدٍ سواء، لذلك نجدهم يسعون جاهدين لتحقيق هذا المطلب بطرق متعددة تتباين أو تتقارب بدرجات متفاوتة من واحد لآخر ومن فترة زمنية لأخرى وفقاً لمقتضيات العصر.

لقد حاول ابن خلدون تحقيق ذلك من خلال قواعد منهجه، وفي مقدمها قاعدة الشك والتمحيص، فاستفاد في صياغته وتأكيده أهمية هذه القاعدة من دراسته لكبار أئمة الفقه الإسلامي مثل" أبو حامد الغزالي" الذي شكك في قدرة العقل على إدراك الحق، وكذلك استفاد من دراسته لعلم الحديث الشريف من الطرق المتبعة في التثبت من صحة الأحاديث التي نقلت عن النبي صلى الله عليه وسلم. يهدف الشك والتمحيص عند ابن خلدون للوصول إلى إثبات يقيني لحقائق العمران البشري، والأساس العلمي المنهجي الذي ارتكز عليه ابن خلدون في دراسته للظواهر الاجتماعية للوصول إلى الحقيقة يتطلب التزام الباحث بعدم قبول أي شيء على أنه حق، قبل التأكد بوضوح أنه كذلك، وللوصول إلى الغاية المرجوة من ذلك، اعتمد ابن خلدون في دراسته للظواهر الاجتماعية على الملاحظة العلمية المباشرة التي تتم في ضوء تجربته الشخصية والتجربة الإنسانية، وانطلاقاً من ذلك أشار ابن خلدون في مقدمته إلى الأخطاء المنهجية التي وقع فيها المؤرخون الذين سبقوه، حيث اعتمدوا على مجرد نقل الخبر دون الشك والتمحيص فيه، وفي هذا الصدد يقول:" وكثيراً ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل من المغالط في الحكايات والوقائع لاعتمادهم على مجرد النقل غثاً أو سميناً ولم يعرضوها على أصولها ولا قاسوها بأشباهها ولا سبروها بمعيار الحكمة والوقوف على طبائع الكائنات وتحكيم النظر والبصيرة في الأخبار فضلّوا عن الحق" (ابن خلدون، 1984، 9). تجدر الإشارة هنا إلى أن رينيه ديكارت (1596 – 1650) Rene Descartes– الذي جاء بعد ابن خلدون بفترة طويلة – أكد أهمية استخدام قاعدة الشك في البحوث العلمية؛ بغية الوصول إلى شيء يقيني حول الظاهرة المدروسة عن طريق برهان عقلي، وفي هذا الخصوص يقول ديكارت في القاعدة المنهجية الأولى، التي تسمى قاعدة اليقين:" ألا أقبل شيئاً على أنه حق ما لم أعرف يقيناً أنه كذلك: بمعنى أن أتجنب بعناية التهور، والسبق إلى الحكم

قبل النظر، وألا أُدخل في أحكامي إلا ما يتمثل أمام عقلي في جلاء وتميز، بحيث لا يكون لدي أي مجال لوضعه موضع الشك" (ديكارت، 1968، 95 – 96). إن ديكارت لا يقصد هنا الحكم بزيف كل شيء يوضع موضع الشك، بل يقصد بذلك أنه على الباحث أن يتأكد من خلال الشك المنهجي من حقيقة الشيء قبل إعلانه.

إن عملية الشك المنهجي في المعلومة، بغية التأكد من صحتها اتبعها ابن خلدون وجعل منها قاعدة منهجية في دراسة ظواهر العمران البشري، لكن لا بد من التنويه هنا إلى أن التقدم الحاصل الآن في مختلف مجالات المعرفة العلمية، وبخاصة في مجال تكنولوجيا المعلومات، ومعالجة البيانات، وطرق اختبارها أتاح أمام الباحثين في أيامنا هذه إمكانية أكبر مما كان متاحاً لابن خلدون في مجال التحقق من دقة المعلومة، وهذا إنجاز يمكن للباحثين الاستفادة منه، بالإضافة لما قدمه ابن خلدون من قواعد منهجية في إنجاز البحوث العلمية.

وكما أن للتطور الحاصل في مجال تكنولوجيا المعلومات جانب إيجابي يمكن استثماره في بلوغ المعلومة الدقيقة والمأمونة، كذلك هناك جانب آخر تضليليّ، قد يؤدي بالباحث للحصول على معلومات غير صحيحة ومشوهة للحقيقة، وهنا على الباحث أن يكون شديد الحذر قبل إعلانه يقينية ما توصل إليه من معلومات، مثلاً، إذا أراد باحث الحصول على بيانات حول حدث معين في بلد ما، فقد يحصل على كمٍّ كبيرٍ من المعلومات لا تلامس حقيقة هذا الحدث وتشوه الحقائق حوله لتحقيق غاية ما خدمة لمصلحة دولة أو دول معينة.

إن الوصول إلى المعلومة اليقينية ضرورة ملحة بالنسبة لعلم الاجتماع المعاصر، فالباحث الاجتماعي مطالَبٌ ببذل أقصى الجهد واستخدام الشك المنهجي للوصول إلى يقينية كل معلومة يعلنها في بحثه، لأن في ذلك ضمان للوصول إلى النتائج العلمية الموثوقة الصحيحة التي تمكن الباحثين من تقديم اقتراحات ناجعة مبنية على هذه النتائج تسهم في معالجة المشكلات الاجتماعية والاقتصادية والتعليمية والصحية ... التي تواجه المجتمع وتعيق تقدمه.

2– قاعدة ملاحظة الظاهرة الاجتماعية ودراستها كما هي في الواقع: تؤكد هذه القاعدة رأي ابن خلدون في أن دراسة ما ليس له وجود مادي ملموس في الواقع لا يوصلنا إلى القوانين التي تخضع لها الظواهر التي ندرسها (انظر: بريك، 2002 – 2003، 57).

لقد كان ابن خلدون سباقاً في معالجته للظاهرة الاجتماعية كما هي في الواقع، حيث عمد إلى دراستها دراسة تحليلية نقدية بغية الكشف عن العلاقات التي تربط بين متغيرات الظاهرة الاجتماعية وتحديد الأسباب والظروف التي أدَّت مجتمعةً إلى حدوث الظاهرة أو التأثير فيها، وهذا يؤدي إلى الكشف عن القانون الذي تخضع له هذه الظاهرة في مسار تطورها التاريخي، وهذا الهدف يشكل غايةَ كلِّ علم ويضفي عليه صفة العلم.لقد بين ابن خلدون في مقدمته " أن المجتمعات البشرية تسير وفق قوانين محددة وهذه القوانين تسمح بقدر من التنبؤ إذا ما دُرست وفُقِهت جيداً، وأن هذا العلم (علم العمران كما أسماه) لا يتأثر بالحوادث الفردية وإنما يتأثر بالمجتمعات ككل، وأخيراً أكد ابن خلدون أن هذه القوانين يمكن تطبيقها على مجتمعات تعيش في أزمنة مختلفة بشرط أن تكون البنى واحدة في جميعها" (بن فرج الله، 2016، 12). إن هذا يعني أن ابن خلدون نظر إلى الظواهر الاجتماعية عند معالجته لها على أنها تخضع لقوانين كما تخضع الظواهر الطبيعية للقوانين الخاصة بها.

وقد انتقد ابن خلدون الذين كانوا يعتمدون في عرض الظواهر ودراستها على مجرد نقل الخبر، وفي هذا الخصوص يقول:" فإذا كان السامع عارفاً بطبائع الحوادث والأحوال في الوجود ومقتضياتها أعانه ذلك في تمحيص الخبر على تمييز الصدقِ من الكذب ، وهذا أبلغ في التمحيص من كلِّ وجهٍ يَعْرِضُ، وكثيراً ما يعرض للسامعين قبولُ الأخبارِ المستحيلةِ ويَنْقُلُونَهَا وتُؤْثَرُ عنهم كما نقله المسْعوديُّ عن الإسكنْدَرِ لما صدَّتْهُ دواب البحر عن بناء الإسكندرية.." (ابن خلدون، 1984، 36).

إن هذا الموقف لابن خلدون من دراسة الظواهر الاجتماعية كما هي في الواقع أكده بعد عدة قرون " إميل دوركهايم Emile Durkheim" في كتابه (قواعد المنهج في علم الاجتماع) من خلال قاعدة وجوب ملاحظة الظواهر الاجتماعية ودراستها على أنها أشياء، فدوركهايم ينظر إلى الظواهر الاجتماعية على أنها تقدم نفسها للملاحظة الحسية المباشرة مثلها مثل الظواهر الطبيعية، كما تعني شيئية الظاهرة بالنسبة لدوركهايم أنها تقدم نفسها من الخارج، والظاهرة الاجتماعية هي من نتاج المجتمع وليست من نتاج الفرد.

ولكي يكون البحث السوسيولوجي بحثاً علمياً، لا بد للباحث من أن يتخذ من شيئية الظاهرة قاعدة منهجية أساسية ينطلق منها في دراسته، وفي هذا الصدد يقول دوركهايم:" الظواهر الاجتماعية " أشياء"، ويجب أن تدرس على أنها" أشياء"... ويكفي في هذه الحال أن نعلم أن هذه الظواهر هي المادة الوحيدة التي يمكن اتخاذها موضوعاً لعلم

الاجتماع. فإن الشيء هو حقيقة ما يقع تحت ملاحظتنا، أو هو ما يقدم نفسه لها، أو هو بالأحرى ما يفرض نفسه عليها فرضاً" (دوركهايم، 1988، 90).

3– الاستقراء والاستنتاج: لقد اعتمد ابن خلدون في دراسته للظواهر الاجتماعية على الاستقراء، فلكي يتمكن من فهم ظاهرة العمران البشري، وما تمتاز به من خصائص في بناء المدن والحضارة ووفرة الإنتاج، عاد ابن خلدون إلى العمران البدوي مستقرئاً ما يمتاز به هذا العمران من أحوال وعوارض ذاتية كالنسب والحسب والعصبية، وهذا يعني الدراسة التفصيلية للأجزاء التي يتكون منها العمران البدوي؛ بغية جمع الأدلة والبراهين منها بحسب أسبقيتها الزمنية للاستفادة منها في فهم العمران البشري من خلال الاستقراء؛ أي الانتقال من الجزء إلى الكل.

إن ابن خلدون لم يتوقف في فهمه ودراسته للظواهر الاجتماعية وتطور المجتمعات على المنهج الاستقرائي فحسب؛" بل كان أيضاً يبدأ بنظرية أو مبدأ ما، ثم يحاول البرهنة على هذا المبدأ استناداً إلى مسلّمات أو نتائج كان قد برهن عليها منتقلاً من الكلِّ إلى الجزء" (بريك، 2002 – 2003، 58). وبهذا يكون ابن خلدون قد اعتمد في فهمه للعمران البشري وتطوره على المنهجين الاستقرائي والاستنتاجي.

4 – المقارنة بين ماضي الظاهرة وحاضرها وبين مجتمع وآخر:

كما أن استخدام ابن خلدون لطريقة المقارنة بين ماضي الظاهرة وحاضرها جاء انطلاقا من إيمانه بحتمية تغير الظاهرة الاجتماعية، فدراسة الظاهرة في ماضيها وتعرف أسباب نشوئها وتتبع مراحل تطورها وصولاً إلى تعرّف واقعها الحالي يمكّن الباحث من الكشف عن الأسباب والظروف التي أدت بتفاعلها عبر الزمن إلى وصول الظاهرة إلى ما هي عليه الآن؛ وهذا يتيح للباحث الاجتماعي الكشف عن القوانين التي تخضع لها الظاهرة الاجتماعية، وكذلك تعرف أوجه التوافق والاختلاف بين ماضي الظاهرة وحاضرها؛ الأمر الذي يوفر للباحث إمكانية التنبؤ بمستقبل الظاهرة. لقد قارن ابن خلدون بين المجتمع البدوي والمجتمع الحضري وتوصل إلى أن" البَدْوَ أصلٌ للمدن والحضر وسابقٌ عليهما، لأن أوَّلَ مطالب الإنسان الضروريُّ ولا ينتهي إلى الكمال والترف إلا إذا كان الضروري حَاصلاً" (ابن خلدون، 1984، 122). وفي مقارنته بين المجتمع البدوي والمجتمع الحضري توصل ابن خلدون إلى أن أهل البدو أقرب إلى الخير من أهل الحضر (انظر: ابن خلدون، 1984، 123).

بالإضافة إلى تأكيد ابن خلدون حتمية تغير الظاهرة الاجتماعية، فهو يؤكد نسبية التغير، فعلى الرغم من أن التغير حاصل لا محال، فإن شدة هذا التغير ونسبته تختلف من فترة زمنية لأخرى ومن مجتمع لآخر.

لقد عمل ابن خلدون في معالجته للظاهرة الاجتماعية" على أن يتناولها في حالتي استقرارها وتطورها معاً، وأن يمزج بين ما يتمثل منها في قوالب التفكير والفهم وما يبدو منها في صورة نظم للعمل والسلوك، في محاولة للكشف عن القوانين التي تخضع لها هذه الظواهر في نشأتها وتطورها وما يعرض لها من أحوال" (الجوهري، يوسف، 2008، 81).

إن هذا النهج في دراسة الظاهرة الاجتماعية اتبعه مؤسس علم الاجتماع الحديث أوغست كونت August Comte الذي جاء بعد ابن خلدون بعدة قرون عندما حدد موضوع علم الاجتماع بأنه الظواهر الاجتماعية في حالتي الثبات والحركة؛ ووفقاً لذلك قسّم أوغست كونت علم الاجتماع إلى قسمين متكاملين، وهما: علم اجتماع الثبات أو السكون Statische Soziolgie، وعلم اجتماع الحركة أو التقدم Dynamische Soziologie (انظر: بريك، 2002 – 2003، 76) و(انظر: المقدم، 1994– 14– 17).

5 – التعميم:

إن البحث الاجتماعي لا تكتمل الفائدة منه إذا لم يتمكن الباحث الاجتماعي من تعميم نتائج بحثه على الظواهر المشابهة للظاهرة التي يدرسها، وهذا الهدف يسعى إلى تحقيقه كلُّ باحث في السابق والآن، وقد جعل ابن خلدون من التعميم قاعدة من قواعد المنهج عنده، ولكي يحقق ذلك، كان يدرس الظاهرة في مجتمع أو مجتمعين، وبعد توصله إلى النتائج ينتقل إلى تعميمها على الظواهر الشبيهة، بعبارة أخرى كان ينتقل من الأجزاء المشاهدة التي تمت دراستها إلى الأجزاء غير المشاهدة، على سبيل المثال، يقارن ابن خلدون في الفصل التاسع والعشرين من مقدمته بين أهل الحضر وأهل البدو في الإصابة في الأمراض وحاجتهم إلى صناعة الطب، وفي هذا الصدد يقول:" ووقوع هذه الأمراض في أهل الحضر والأمصار أكثر لخصب عيشهم وكثرة مأكلهم وقلة اقتصارهم على نوع واحد من الأغذية وعدم توقيتهم لتناولها وكثيراً ما يخلطون بالأغذية ... ثم إن الرياضة مفقودة لأهل الأمصار إذ هم في الغالب وادعون ساكنون لا تأخذ منهم الرياضة شيئاً ولا تؤثر فيهم ... أما أهل البدو فمأكولهم قليل في الغالب والجوع أغلب عليهم لقلة الحبوب ... ثم إن الرياضة موجودة فيهم لكثرة الحركة ... فتكون أمزجتهم أصلح وأبعد عن الأمراض فتقل حاجتهم إلى الطب" (ابن خلدون، 1984، 416 – 417).

إن إجراء ابن خلدون لهذه المقارنة مكنه من تحديد الأسباب التي تؤدي إلى الإصابة بالأمراض؛ الأمر الذي مكَّنه من تقديم تفسير علمي لحدوث هذه الظاهرة بكثرة في المجتمعات الحضرية وعدم انتشارها في المجتمعات البدوية، وهذا دفعه إلى تعميم ما استخلصه من نتائج من دراسته هذه على كل المجتمعات الحضرية والبدوية.

وعلى الرغم من أن علماء الاجتماع المعاصرين يستخدمون في دراساتهم مناهج وطرائق بحث علمية متباينة في مضامينها ومختلفة في اتجاهاتها للتحقق من فرضياتها والإجابة عن تساؤلاتها، وعلى الرغم من التطور الملحوظ في مناهج البحث الاجتماعي وطرائقه، ما زالت تظهر مشكلات منهجية تحدّ من إمكانية تعميم النتائج التي يتوصل إليها الباحثون، ومازالت توجد ثغرات عديدة تمسّ الإجراءات المنهجية المتبعة في إنجاز هذه البحوث؛ الأمر الذي يقلل من مصداقية النتائج التي يتم التوصل إليها في كثير من الأحيان، وفي هذا السياق يمكن لمنهجية ابن خلدون أن تساعد في معالجة الكثير من المشكلات المنهجية التي كانت في الماضي ومازالت قائمة حتى الآن، لكن شريطة أن يدرك الباحث أن استثمار ما توصل إليه علم الاجتماع المعاصر من تقنيات وأساليب وطرق متطورة في اختيار العينة المناسبة الممثلة للمجتمع الأصلي للبحث ،وتصميم أدوات جمع البيانات، وطرق معالجتها بالشكل الملائم كلّ ذلك يزيد من إمكانية تعميم النتائج التي يتوصل إليها الباحثون في دراساتهم الاجتماعية.

إن ما سبق توضيحه يدفعنا إلى القول إن الاستفادة مما توصل إليه ابن خلدون أو غيره من العلماء السابقين قد يكون مفيداً، ولكن الفائدة تكون أكبر عندما نطور ما توصل إليه السابقون بما يتماشى مع التغيرات التي أصابت الظروف المحيطة بمجتمعاتنا الراهنة، فابن خلدون لم تكن متاحة له التكنولوجيا المتطورة التي نلحظها في وقتنا الراهن، وإذا ما حاولنا أن نحكم على دقة تعميم النتائج التي توصل إليها مقارنة بما هو متاح للباحث الآن قد نقول: إن دراسة مجتمع ما وتعميم النتائج على مجتمعات أخرى ليست دقيقة بالشكل الكافي، لأن المجتمعات تختلف في خصائصها من مجتمع لآخر ومن فترة زمنية لأخرى، وهذا يجعل إمكانية التعميم محدودة، ثم إن الباحث إذا درس مجتمعاً واحداً من خلال سحبه أو أخذه لعينة منه، بغية تعميم النتائج التي سيتوصل إليها على المجتمع نفسه، فلن يتمكن من تعميم النتائج إذا لم تكن العينة المدروسة ممثلةً تمثيلا دقيقاً للمجتمع، وهنا يحق لنا أن نتساءل كيف يمكن لباحث أن يدرس مجتمعاً معيناً، ويعمم النتائج على مجتمعات أخرى قد تختلف عن بعضها ولو في بعض خصائصها وظروف معيشتها، وإلى أي حدّ يكون التعميم مقبولاً؟

ثامناً: فهم ابن خلدون للظاهرة الاجتماعية:

في تعريفه للعمران البشري – الذي هو موضوع علمه الجديد – يقول:" هو التساكن والتنازل في مصر أو حلة للأنس بالعشير واقتضاء الحاجات لما في طباعهم من التعاون على المعاش" (ابن خلدون، 1984، 41). في هذا القول يؤكد ابن خلدون أن الاجتماع الإنساني شرط أساسي وضروري لبقاء البشر، لأنه يتيح لهم تأمين مستلزمات بقائهم على قيد الحياة، فقدرة الفرد الواحد لا تمكنه من توفير حاجاته الضرورية من الطعام والماء وسواها من أجل ضمان استمرار وجوده، فحاجة الفرد، مثلاً، لقوت يوم واحد من الحنطة لا يحصل عليها " إلا بعلاجٍ كثيرٍ من الطحن والعجن والطبخ وكل واحد من هذه الأعمال الثلاثة يحتاج إلى مواعين وآلاتٍ لا تتم إلا بصناعات متعددة من حدادٍ ونجارٍ وفاخوريٍّ" (ابن خلدون، 1984، 42). إن في هذا القول تأكيد أيضاً أن ظواهر العمران البشري هي ظواهر من صنع المجتمع وليست من صنع الفرد؛ أي أنها ظواهر اجتماعية وليست ظواهر نفسية فردية، وبما أن الاجتماع الإنساني شرط أساسي وضروري لنشاط البشر الذي يشكل الظواهر الاجتماعية الضرورية لبقائهم على قيد الحياة، فالأفراد مُلزمون بالعمل بما يرتضيه المجتمع؛ وهذا يعني أن الظواهر الاجتماعية تفرض نفسها علينا سواء أردنا ذلك أم لم نرد.

إن وجهة نظر ابن خلدون هذه أكّدَها عالم الاجتماع الفرنسي إميل دوركهايم Emile Durkheim الذي جاء بعده بعدة قرون، عندما حدد خصائص الظاهرة الاجتماعية التي تشكل موضوع دراسة علم الاجتماع ليميّز بذلك موضوع علم الاجتماع من موضوعات العلوم الأخرى بما يأتي:" أسبق في الوجود من الفرد الذي يدين بها للسبب الآتي، وهو أن لها وجوداً خارجياً بالنسبة إليه وإن مجموعة الألفاظ التي أستخدمها للتعبير عن أفكاري، ومجموعة النقود التي أستعين بها على قضاء ديوني والوسائل الاقتصادية التي أستخدمها في علاقاتي التجارية ...كل هذه ظواهر اجتماعية تؤدي وظيفة مستقلة عن طريقة استخدامي إياها" (دوركهايم، 1988، 51). إن هذا يعني أن الظاهرة الاجتماعية تَرِدُ إلى الفرد من الخارج وليس من الداخل، فهي ظاهرة اجتماعية وليست نفسية. وهذا يعني أيضاً أن الظاهرة الاجتماعية ليست من نتاج الفرد بل من إنتاج المجتمع.

كما تمتاز الظاهرة الاجتماعية أيضاً" بقوة آمرة قاهرة هي السبب في أنها تستطيع أن تفرض نفسها على الفرد أراد ذلك أو لم يرد" (دوركايم، 1988، 52). فالفرد لاحول ولا قوة له حيالها ولا يستطيع أن يغيرها، فالعادات والتقاليد ... توجد في المجتمع قبل ولادة الفرد وتستمر بعد وفاته، وإذا حاول الفرد أن يشذَّ عما يرتضيه المجتمع من عادات

وتقاليد وقيم سائدة فيه، فإنه سيجد الرفض من المجتمع، وفي أحيان أخرى الإلزام بقوة القانون الذي يلزم الجميع بالسير على هديه لأنه يضمن الأمن والاستقرار للمجتمع.

يدرس ابن خلدون الظاهرة الاجتماعية في إطارها الاجتماعي، فهي لا يمكن أن تتواجد بمعزل عن الظواهر الاجتماعية الأخرى، حيث تربط بينها وبين الظواهر الأخرى علاقة تأثير متبادل، وهذا ميّز منهجية البحث عنده بالنظرة الشمولية التكاملية في دراسته لظواهر العمران البشري، حيث كان ينظر إلى المجتمع ككل ويتحدث عن ضرورة الاجتماع البشري، ثم يعود ليوضح دور العوامل المختلفة التي تؤثر في العمران البشري وفي تطور أو تخلف المجتمع كالإقليم والسياسة والدين والاقتصاد والعلم والتعليم والتقليد (انظر: بريك، 2002 – 2003، 56). كما أن العوامل النفسية قد تؤثر في الظاهرة الاجتماعية، فقد تؤثر حالة الشخص النفسية في علاقات الفرد الاجتماعية وسلوكه مع الآخرين، إلا أن ذلك لا يعني أن الظاهرة الاجتماعية تأتي من داخل الفرد، بل إنها ترد إليه من الخارج؛ أي أنها تتواجد في المجتمع وتستمر باستمراره.

كما يرى ابن خلدون أن الظواهر الاجتماعية لا تنفصل عن الظواهر الطبيعية، فللعوامل الطبيعة أثر كبير في العمران البشري، فلطبيعة الإقليم وخصبه وغناه بالثروات أو فقره دور كبير في تقدم المجتمع أو تخلفه؛ الأمر الذي ينعكس على مستوى حياة البشر وفي هذا الصدد يقول ابن خلدون:" اعلم أن هذه الأقاليم المعتدلة ليس كلها يوجد بها الخِصْبُ ولا كل سكانها في رغدٍ من العيش، بل فيها ما يوجد لأهله خِصْبُ العيش من الحبوب والأَدَمِ والحنطة والفواكه لزكاء المنابت واعتدال الطينة ووفور العمران وفيها الأرض الحَرَّةُ التي لا تنبت زرعاً ولا عشباً بالجملة فسكانها في شظف العيش مثل أهل الحجاز وجنوب اليمن .." (ابن خلدون، 1984، 87).

يعالج ابن خلدون الظاهرة الاجتماعية على أنها متغيرة باستمرار، فهي لا تعرف الجمود ولا التوقف عند حال، بل تختلف في شكلها من عصر لآخر وتتمايز بسماتها الخاصة من مجتمع لآخر وفقا لطبيعة كل مجتمع، وخصائصه، وظروفه، ويؤكد ذلك قول ابن خلدون:" فالبدو أصل للمدنِ والحضرِ وسابقٌ عليهما لأن أولَ مطالبِ الإنسانِ الضروريُّ ولا ينتهي إلى الكمال والترف إلَّا إذا كان الضروري حاصلاً فخشونة البداوة قبل رِقَّةِ الحضارة، ولهذا نجد التمدُّنَ غايةً للبدوي يجري إليها..." (ابن خلدون، 1984، 122).

إن عدم الاعتماد على نقل الأخبار والوقائع قبل التأكد من صحتها شرط ضروري من الناحية المنهجية لكنه غير كافٍ، فالباحث مُطالَبٌ قبل كل شيء من التأكد من إمكان حدوث الوقائع، وفي هذا الصدد يقول ابن خلدون:" وأما الأخبار عن الواقعات فلا

بد من صدقها وصحتها من اعتبار المطابقة ،فلذلك وجب أن يُنْظَرَ في إمكان وقوعه... وإذا فعلنا ذلك كان ذلك لنا قانوناً في تمييز الحق من الباطل في الأخبار والصدق من الكذب بوجه برهاني لا مدخل للشك فيه" (ابن خلدون، 1984، 37 – 38).

تاسعاً: وجهة نظر ابن خلدون حول علاقة الإنسان بالطبيعة:

إن العلاقة بين الطبيعة والإنسان علاقة متبادلة التأثير والتأثر، فالإنسان منذ وُجِد يحاول التأثير في الطبيعة وإخضاعها لسيطرته لتأمين مستلزمات بقائه من مأكل وملبس ومسكن ... وكذلك البيئة الطبيعية تؤثر في مستوى حياة الناس بما تمتلكه من مناخ مناسب وخيرات؛ ولذلك كان الإنسان منذ القديم يحاول البحث عن البيئة الطبيعية الأكثر ملاءمة لتأمين مستلزمات وجوده.

لقد أشار ابن خلدون إلى أثر الهواء ودرجة حرارته في الأقاليم المختلفة في طبيعة البشر وأخلاقهم وسلوكهم في ادخار القوت، حيث يصف أهل "فاس" من بلاد المغرب بقوله:" كيف ترى أهلها مُطْرِقِينَ إطراق الحزن وكيف أفرطوا في نَظَرِ العواقب حتى إن الرجل منهم لَيَدَّخِرُ قوت سنتين من حبوب الحنطة ويباكر الأسواق لشراء قوته ليومه مخافة أن يُرْزَأَ شيئاً من مدخرِه وتتبّعْ ذلك في الأقاليم والبلدان تجدْ في الأخلاق أثراً من كيفيَّات الهواء والله الخلاق العليم" (ابن خلدون، 1984، 86 – 87).

وتجدر الإشارة هنا إلى أن كارل ماركس Karl Marx عدَّ المجتمع جزءاً من العالم المادي، حيث يصعب فهم الحياة الاجتماعية بمعزل عن الطبيعة حيث" يجد الإنسان في الطبيعة موضوع عمله ومصادر الطاقة التي تشكل الأساس المادي لوجوده ... إذ يؤدي الموقع الجغرافي لبلد ما، وما في باطن أرض هذا البلد من ثروات دوراً مهماً في تقدم هذا البلد أو تأخره..." (بريك، 2002 – 2003، 143). إن تأكيد ماركس الدور الذي تؤديه البيئة الطبيعية في تعجيل تطور البلدان أو تأخيره أكده ابن خلدون في مقدمته قبل ماركس بعدة قرون. لكن كارل ماركس أشار إلى أثر النظام الاجتماعي الاقتصادي في تقدم وتطور المجتمعات، بخاصة عند دراسته للرأسمالية في عصره.

عاشراً: الموضوعية عند ابن خلدون:

وتتضمن الموضوعية في البحث معنى الواقعية؛ أي التقيد بالواقع المادي لوجود الظاهرة كشرط لدراسة الظواهر الاجتماعية في حاضرها أو ماضيها. وتشمل الواقعية عند ابن خلدون" ثلاث درجات في القوة، فهي إما ضرورية وإما ممكنة، أو مستحيلة. وتعدُّ هذه الدرجات الثلاث في نظره قانوناً لتمييز الحق من الباطل والصحيح من الكاذب في نقل المعلومات عن الظاهرات الاجتماعية.

(الأخرس، 2000 –2001، 114). وقد بيّن ابن خلدون في مقدمته أن التعاون بين الناس ظاهرة ضرورية للعمران حيث قال:" إن أعمال أهل المِصْرِ يَسْتَدْعي بعضها بعضاً لِمَا في طبيعة العمران من التعاون" (ابن خلدون، 1984، 376).

والتعاون بين أفراد البشر حاجة ضرورية لا بد من وجودها في كل المجتمعات البشرية.وفي هذا الصدد يقول ابن خلدون:" ... وما يستدعي من ذلك لضرورة المعاش فيوجد في كل مِصْرٍ كالخياط والحداد والنجار وأمثالها" (ابن خلدون، 1984، 377). وعن الظاهرات الممكنة التي يمكننا أن نراها في مجتمع معين ولا نراها في مجتمع آخر يقول ابن خلدون:" وما يستدعي لعوائد الترف وأحواله فإنما يوجد في المدن المستبحرة في العمارة الآخذة في عوائد الترف والحضارة مثل الزَّجَّاجِ والصَّائغِ والدَّهَّانِ والطبَّاخ والصَّفَّارِ والفرَّاشِ والذبَّاحِ وأمثال هذه، وهي متفاوتة، وبقدر ما تزيد عوائد الحضارة وتستدعي أحوال الترف تحدث صنائع لذلك النوع فتوجد بذلك المِصرِ دون غيره" (ابن خلدون، 1984، 377). فالرفاه من وجهة نظر ابن خلدون متوافر لدى أبناءالحضر وغير متوافر لدى أبناء البدو.

وبالنسبة لاستحالة الحدوث نشير إلى ما عبر عنه ابن خلدون في مقدمته الشهيرة حيث قال:

" وما لا يستدعي في المصر يكون غفلاً إذ لا فائدةَ لمنتحله في الاحتراف به... إلا أنها إذا لم تكن لها داعية من كافة الناس فسرعان ما تُهْجرُ وتَخْرَبُ وتَفِرُّ عنها القَوَمَةُ لقلة فائدتهم ومعاشهم منها" (ابن خلدون، 1984، 377).

أحد عشر: التطور الاجتماعي عند ابن خلدون:

يؤكد ابن خلدون في أماكن متعددة من مقدمته أن المجتمع الإنساني يتطور باستمرار، فهو في حركة دائمة لا يعرف الجمود أو التوقف؛ لأنه يتغير من حال إلى حال، فهو في صيرورة دائمة، وقد عبر عن رأيه هذا بوضوح عندما قال:" فطَوْر الدولة من أوَّلِها بداوَةٌ ثمَّ إذا حَصَلَ الْمُلْكُ تَبِعَهُ الرَّفَهُ واتساعُ الأحوالِ، والحضارة إنما هي تفننٌ في الترفِ وإحكامِ الصنائعِ المُسْتَعْمَلَةِ في وجوهه ومذاهبه من المطابخ والملابس والمباني والْفُرْشِ والأبنيةِ وسائرِ عوائد المنزل وأحواله..." (ابن خلدون، 1984، 172).

ويشير ابن خلدون إلى أن أعمار الدولة في الغالب" لا تعدُو أعمار ثلاثة أجيالٍ ،والجيل هو عمْر شخص واحدٍ مِنَ العمر الوسط فيكونُ أربعينَ الذي هو انتهاء النمو والنُّشوءِ إلى غايته" (ابن خلدون، 1984، 170). ويتصف هذا الجيل – حسب ابن خلدون – بخصائص تميزه من خصائص الجيلين الآخرين، فأبناء هذا الجيل لا يزالون

على" خُلُقِ البداوةِ وخشونتها من شظف العيش والبسالة والافتراس والاشتراك في المجدِ ،فلا تزال بذلك سَورَةُ العصبية محفوظة فيهم" (ابن خلدون، 1984، 170). أما الجيل الثاني فهو جيل الحضارة الذي تطور عن سابقه وتميز بخصائص وصفات تخصه بذاته وتميزه من جيل البداوة، فأبناء هذا الجيل تحولوا" من البداوة إلى الحضارة ومن الشَّظَفِ إلى التَّرَفِ والخِصْبِ ،ومن الاشتراك في المجد إلى انفراد الواحد به وكسل الباقين عن السعي فيه ..." (ابن خلدون، 1984، 170 –171). وبالنسبة للجيل الثالث يرى ابن خلدون أن أبناءه بلغ فيهم الترف درجة أَنْسَتْهم عهد البداوة والخشونة وأفقدتْهم حلاوة العزِّ والعصبية فصاروا" عيالاً على الدولة ومن جملة النساء والولدان المحتاجين للمدافعة عنهم" (ابن خلدون، 1984، 171).

يرى ابن خلدون أن الاختلاف في مراحل تطور المجتمعات يعود إلى التباين في الأنشطة الاقتصادية السائدة في تلك المجتمعات، وإلى الاختلاف في الظروف الطبيعية والمناخ. فالمجتمعات البدوية تقوم على الاقتصاد الطبيعي الذي يرتكز على ممارسة الأنشطة الرعوية والزراعية التي تمتاز بتدني إنتاجيتها ومحدودية استهلاك قاطنيها، فإنتاج هذه المجتمعات إنما هو بالقدر الذي يحفظ الحياة ... من غير مزيد عليه للعجز عما وراء ذلك، وإذا تحسنت أحوال هؤلاء المنتحلين للمعاش وأنتجوا ما يزيد عن حاجتهم حسنوا ظروف معيشتهم من الغذاء والملبس والمسكن وتوسعوا في عمران مجتمعاتهم. ومنهم من ينتحل في معاشه الصنائع ومنهم من ينتحل التجارة ويكون كسْبُهم أكثر من كسب أهل البدو لأن أحوالهم زائدة عن حاجاتهم الضرورية ومن ذلك يستنتج ابن خلدون أن أجيال البدو والحضر طبيعية ولا بد منها. (انظر: ابن خلدون، 1984، 120 – 121).

فالبدو كما ذكر ابن خلدون في مقدمته" هم المقتصرون على الضروري في أحوالهم، العاجزون عَمَّا فوقه، وأن الحضر المُعْتَنُون بحاجات الترف والكمال في أحوالهم وعوائدهم، ولا شك أن الضروري أقدم من الحاجي والكمالي وسابق عليه" (ابن خلدون، 1984، 122). إن هذا يؤكد حقيقة مهمة أدركها ابن خلدون بوضوح مفادها أن أحوال الدول والناس وعوائدهم تتبدل وتتغير بمرور الزمن وبتبدل الظروف، فالدول والمجتمعات لا تعرف الجمود ولا التوقف بل تتبدل وتنتقل من حال إلى حال، حيث يقول:" اعلمْ أنَّ الدولةَ تنتقل في أطوارٍ مختلفةٍ وحالات متجددةٍ ويكتسب القائمون بها في كل طَوْرٍ خُلُقاً من أحوالِ ذلكَ الطَّورِ لا يكون مثله في الطور الآخر" (ابن خلدون، 1984، 175). إن هذا الفهم لابن خلدون لتطور المجتمعات وانتقالها من حال إلى حال يختلف في خصائصه وسماته عما سبقه، نجد شبيهاً له – إلى حدٍّ ما – عند كارل ماركس الذي

جاء بعده بعدة قرون عندما عبر عن التطور الاجتماعي للمجتمعات البشرية وحدَّده في عدة تشكيلات اجتماعية – اقتصادية تمتاز كل منها بخصائص نوعية تميزها من الأخرى.

اثنا عشر: آراء ابن خلدون التربوية:

3 – التدرج في تدريس العلوم للمتعلمين:

من القواعد المهمة التي يجب على المعلم أن يأخذها بعين الاعتبار في التعليم أن يبدأ العملية التعليمية مع الطلاب بالتدرج؛ أي بتلقينهم المعلومات البسيطة التي يتقبلها عقلهم ثم الانتقال تدريجياً إلى الأكثر تركيباً، وهذا يسهل على المتعلم الفهم وكسب المعرفة، وفي هذا الصدد يقول ابن خلدون:" اعلم أن تلقين العلوم للمتعلمين إنما يكون مفيداً إذا كان على التدريج شيئاً فشيئاً وقليلاً قليلاً ،يلقى عليه أولاً مسائلُ من كل بابٍ من الفنِّ هي أصولُ ذلك البابِ ويُقَرَّبُ له في شرحها على سبيل الإجمالِ، ويراعى في ذلك قوةُ عقلهِ واستعدادُهُ لقبولِ ما يردُ عليه حتى ينتهيَ إلى آخر الفنِّ" (ابن خلدون، 1984، 533).

يرى ابن خلدون أن على المعلم أن يدرك أن نجاح العملية التعليمية يتطلب في المراحل الأولى تلقين المتعلم المعلومة من خلال توضيحها بالأمثلة الحسية، وفي هذا الصدد يقول:" يكون المتعلم أول الأمر عاجزاً عن الفهم بالجملة إلا في الأقل وعلى سبيل التقريب وبالإجمال وبالأمثال الحسية" (ابن خلدون، 1984، 534). وحول تعليم الأطفال وتربيتهم يقول دوركايم:" أن جميع أنواع التربية تنحصر في ذلك المجهود المتواصل الذي نرمي به إلى أخذ الطفل بألوان من الفكر والعاطفة والسلوك التي ما كان يستطيع الوصول إليها لو تُرِكَ وشأنه. وبيان ذلك أننا نضطره، منذ حداثته، إلى الأكل والشرب والنوم في ساعات معينة، ونوجب عليه النظافة والهدوء والطاعة ثم نجبره على التعلم، وعلى مراعاة حقوق الآخرين، وعلى احترام العادات والتقاليد" (دوركايم، 1988، 57). إن هذا القول لدوركايم يقترب إلى حدٍ كبيرٍ– من حيث أسلوب التعليم – مع ما رآه ابن خلدون حول هذه المسألة.

إن الفترة التي كتب فيها ابن خلدون عن التعليم بغية تطوير العملية التعليمية والأخذ بيد المتعلم ومساعدته بأقصى ما يمكن ليصل إلى مبتغاه من العلم عايشت ظروفا اجتماعية وثقافية وعلمية واقتصادية مختلفة قليلاً أو كثيراً عن ظروفنا الراهنة، فالتطور العلمي الذي نعيشه اليوم يوفر لنا إمكانيات علمية، أكبر مما كان في عصر ابن خلدون، لتطوير العملية التعليمية وهذا يساعد الباحثين على الاستفادة من إسهامات ابن

خلدون وتطويرها والإضافة عليها، فالظروف مواتية للانتقال من العملية التعليمية التقليدية في تزويد المتعلم بالمعلومة إلى جعله مشاركاً في إنتاجها، بعبارة أخرى، الانتقال بالمتعلم من مرحلة استهلاك المعلومة إلى مرحلة المشاركة في إنتاجها مع معلمه وزملائه، فالتطورات الهائلة في مجال تكنولوجيا الاتصال والمعلومات، وطرائق التدريس ووسائل الإيضاح المتنوعة كلها وسائل مساعدة لبلوغ الهدف المأمول من العملية التعليمية في الوقت الراهن.

ثلاثة عشر: النتائج:

1– جمع ابن خلدون في منهجية بحثه بين مزايا المنهج النقلي الذي اعتمدت عليه المذاهب الفقهية، ولكنها لم تتمكن من حلِّ المشكلات المترتبة عليه، ومزايا المنهج العقلي الذي انتهجه الفلاسفة والمفكرون، لكنه لم يتمكن من تقديم رؤية متكاملة لكل الموضوعات التي عالجها.

2 – ركزت منهجية البحث العلمي لديه على دراسة الوقائع الاجتماعية والتاريخية، والأساليب المختلفة في تعرفها، والإجراءات الضرورية للتأكد من يقينيتها، وبذلك تجاوزت منهجية ابن خلدون المسائل الفقهية والدينية التي شكلت محور اهتمام الفلاسفة والباحثين آنذاك.

3 – إن نتائج أي بحث علمي لا تعدُّ بالضرورة نتائج صحيحة وموثوقة ويمكن الاعتماد عليها لارتباطها بخصوصية الباحث نفسه، وهذا يتطلب التدقيق في مدى التزام الباحث بالقواعد المنهجية لإنجاز البحث العلمي، كقاعدة الشك المنهجي وضرورة التمحيص والتحليل والتركيب والاستقراء والاستنتاج، وغيرها من القواعد التي تتيح للباحث الوصول إلى المعرفة.

4 – إن المشكلات المنهجية التي تحول دون بلوغ الباحث الحقائق، والعوامل الذاتية التي تحدُّ من قدرته على اكتشاف المعارف الموضوعية، كانت في عصر ابن خلدون ومازالت في عصرنا الراهن، كانحياز الباحث لمذهب ما أو مدرسة معينة أو سلطان ما أو لمصالحه الخاصة.

5 – اعتمدت منهجية البحث العلمي عند ابن خلدون في معالجة الموضوعات السائدة في عصره على مبدأ قانونية التغير الاجتماعي الذي يرتكز عليه الفكر العلمي، ولم يكن هذا المبدأ ملحوظاً بوضوح لدى الدارسين للقضايا الاجتماعية في ذلك العصر.

6 – إن الوصول إلى المعارف اليقينية يتطلب من الباحث الاجتماعي استخدام الطرائق البحثية المنهجية المتعددة التي تختلف باختلاف موضوعات الدراسة نفسها، وهذا يقتضي ضرورة التوفيق بين المنهجية المستخدمة في الدراسة وموضوع الظاهرة المدروسة.

بناءً على ما تمَّ عرضه من نتائج أعتقدُ أن الوصول إلى المعارف العلمية اليقينية المرجوة من البحث العلمي الاجتماعي لا تكمن في الاستفادة القصوى من إنجازات ابن خلدون المنهجية والنظرية فحسب، بل في العمل – أيضاً – على تطويرها وتحسين ظروف استخدامها، وهذا يتطلب من الباحث الاجتماعي استثمار ما توصل إليه العلم – حتى يومنا هذا – من تطور تقاني في المجالات كافة، وخصوصاً، في مجال تكنولوجيا المعلومات، وتصميم أدوات وبرامج علمية متطورة لمعالجة البيانات، تسهم في إنجاز البحوث الاجتماعية وتحقيق الأهداف المرجوة منها بنجاح.

الخاتمة:

تكمن أصالة منهجية البحث الاجتماعي عند ابن خلدون في مقدرته على الاستفادة من مزايا المنهج النقلي الذي اعتمدت عليه المذاهب الفقهية، ومن مزايا المنهج العقلي الذي انتهجه الفلاسفة والمفكرون. كما أن ابن خلدون في دراسته للوقائع الاجتماعية والتاريخية، تجاوز باتباعه الأساليب المختلفة في تعرفها، والإجراءات المنهجية الضرورية للتأكد من يقينيتها، تجاوز المسائل الفقهية والدينية التي شكلت محور اهتمام الفلاسفة والباحثين آنذاك.

كما تبدو أصالة منهجية البحث عند ابن خلدون في اعتماده على الإجراءات الموضوعية والابتعاد عن العوامل الذاتية التي تحدُّ من قدرة الباحث على اكتشاف المعارف الموضوعية، وفي اعتماد منهجية البحث العلمي عنده على مبدأ قانونية التغير الاجتماعي الذي يرتكز عليه الفكر العلمي، فالظواهر الاجتماعية من وجهة نظره تسير وفقاً لقوانين كالظواهر الطبيعية.

مصادر البحث ومراجعه:

1. ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، دار القلم، بيروت، ط 5، 1984.
2. أبو حمدان، ماجد ملحم، أصول كتابة البحث العلمي الاجتماعي، جامعة دمشق، دمشق، 2013 – 2014.
3. الأخرس، محمد صفوح، المنهج وطرائق البحث في علم الاجتماع، جامعة دمشق، دمشق، ط6، 2000 – 2001.
4. إعداد وتحرير: محمد الجوهري، محسن يوسف، ابن خلدون إنجاز فكري متجدد، مكتبة الإسكندرية، الإسكندرية، 2008.
5. بريك، يوسف، مناهج البحث في علم الاجتماع، جامعة دمشق، دمشق، ط 2، 2002 – 2003.
6. بن فرج الله، بخته، "إسهامات ابن خلدون في بناء نظرية اجتماعية عربية، جامعة" حمة لخضر" الوادي – الجزائر، 2016.
7. دوركايم، إميل، قواعد المنهج في علم الاجتماع، ترجمة محمود قاسم، دار المعرفة الجامعية، إسكندرية، 1988.
8. ديكارت، رينييه، مقال عن المنهج، ترجمة محمود محمد الخضيري، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ط2، 1968.
9. زيادة، مصطفى، الفكر التربوي مدارسه واتجاهات تطوره، مكتبة الراشد، الرياض، 2002.
10. عاقل، فاخر، قاموس التربية، دار القلم، بيروت، 1983.
11. عبد الحميد، صائب، علم التاريخ ومناهج المؤرخين: في علم التاريخ نشأة وتدويناً ونقداً وفلسفةً ومناهج كبار مؤرخي الإسلام، مركز الغدير، بيروت، ط 2، 2008.
12. المقدم، مهى سهيل، أوغست كومت في ميزان الفكر الاجتماعي العربي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 1994.
13. منظمة اليونيسكو، كتاب في جريدة، مقدمة ابن خلدون، العدد 91 – الأربعاء 1 آذار 2006.
14. النجيحي، محمد، مقدمة في فلسفة التربية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1967.
15. Klause,G./Buhr, M., PhilosophischesWorterbuch, Berlin, 1976.
16. مأخوذ عن: (بريك، 2002 – 2003، 32).
17. Sturm, D., Ibn Haldon und seine Zeit, Halle, 1983.
18. مأخوذ عن: (بريك، 2002 – 2003، 54).